

# أنطون بافلوڤتش تشيخوف

حياته . تأليفه . اتجاهاته الأدبية

تاغزوغ . . . !

ومن منا لم يسمع بهذه المدينة إبان الحرب الألمانية السوفياتية ؟  
أجل ! إن تاغزوغ هذه التي تقع في أقصى شمال بحر آزوف ، هي  
مسقط رأس القاصي والكاتب المسرحي العالمي أنطون بافلوڤتش تشيخوف .  
ولد في السابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٠ ، وكان جده لأبيه  
رقيقاً للسادة تشرتكوف . أما أبوه فكان وكيلاً لأملاك خاصة ، ثم تاجراً .  
وكانت أمه أوجيني ياكوفليشا تنتمي إلى أسرة عريقة في التجارة معروفة  
بأسرة موروزوف .

تلقى أنطون علومه الأولية في المدرسة اليونانية الابتدائية في تاغزوغ  
التابعة لكنيسة القيصر قسطنطين ، ثم تدرج منها إلى المدرسة الثانوية  
القائمة في المدينة . وقد جاء في مذكرات أخيه ميخائيل تشيخوف أن  
زملاء أنطون في المدرسة كانوا يلقبونه بـ « أنتوشا تشيخونته » لأنه كان هادئ  
الطبع ، سكوتاً ، شاحب اللون ، قمرى الوجه ، منطوياً على نفسه ،  
قليل الاختلاط بالناس . . . وكان أنتوشا التلميذ ، يحس في قرارة نفسه  
أنه شيء تافه في هذا الوجود ، فكتب لأخيه ميخائيل مرة رسالة ختمها  
بقوله : « واسلم لأخيك الضئيل ! . . » فرد عليه أخوه معنفاً إياه بقوله :  
« لا يعجبني قولك : ” أخوك الضئيل ” . أتدرى أمام من يجب أن تقر  
بضآلتك ؟ يجب أن تقر بها أمام الله . . . أمام العقل ، والجمال ،  
والطبيعة ، وليس أمام الناس . . . فعليك ألا تقر أمامهم إلا بكرامتك . . .

فأنت شاب شريف ، والشريف يحترم نفسه . وعليك ألا تخرج بين الطاعة والاعتراف بالضالة » .

ويبدو أن هذه الكلمات قد تركت أثرها في نفس أنتوشا : ونهته إلى ضرورة الخروج من العزلة ، والشعور بالكرامة الذاتية فكتب بعد مدة رسالة لأخيه قال فيها : « أتدرى يا أخي أن إدارة المدرسة تتقاضى عن كل طالب من الطلاب الداخليين مبلغ ثلاثمائة وخمسين روبلاً سنوياً ، لكنها تقدم لهؤلاء المساكين غذاء لا تستسيغه معد الكلاب » . وأخذ أنتوشا يصدر في المدرسة مجلة للتلاميذ ، سماها : « الأرنب » ، وكان هو محررها الأول ، يغذيها بنكته ومداعباته ؛ وساهم في إنشاء مسرح في المدرسة أيضاً ، وكان يضع له المسرحيات المدرسية ويمثل فيها .

ولما أتم المدرسة الثانوية بتاغروغ . وقد بلغ من العمر تسع عشرة سنة ، أحس بميل يدفعه إلى دراسة الطب ، لأن الطب في نظره هو أسهى الأعمال الإنسانية ، فالتحق سنة ١٨٧٩ بكلية الطب التابعة لجامعة موسكو .

وبعد مضي أربع سنوات غدا أنتوشا يلقب بالـ دكتور أنطون تشيخوف وهذه الناحية الطبية في حياته يجهلها معظم قرائه ؛ فالذى يعرفونه عنه أنه كاتب قصص ومسرحيات ليس إلا . . .  
حقاً إن الدكتور تشيخوف لم يمارس الطب كمهنة دائمة في حياته ، ويعزو أخوه السبب في ذلك إلى حادثين وقعا له في بدء ممارسته فن التطبيب أولهما أنه وصف يوماً لأحد المرضى علاجاً أخطأ في تحضير عقاقيره . . . ولم يظن للخطأ إلا في الليل ، فهب من فراشه مسرعاً إلى بيت المريض الذي كان على وشك تناول الجرعة الأولى قبل النوم . . . وربما كانت النوم الأخيرة . . . وثانيهما أنه كان يعالج أسرة مريضة بداء السل ،

ويعودها بين حين وآخر ، وحدث أن اشتد المرض على أحد أفرادها وأسلم الروح ويده بين راحتي الدكتور تشيخوف . . . .  
 ومع ذلك اشتغل الدكتور أنطون تشيخوف في دائرة الصحة في موسكو ، وكان طبيباً لقرية لوپاسنا الواقعة بالقرب من العاصمة الروسية ، واشترك سنة ١٨٩٢ في مكافحة عدوى الكوليرا ، وكان على الحملة محبباً للطب ، مقراً بأن العلوم الطبية واختباراتها كان لها الأثر العميق في نفسه ككاتب قصص ومسرحي .

والطريف في حياة تشيخوف أن نزوعه إلى الأدب وميله إلى الطب لم يتعارض قط ، بل كانا يكمل بعضهما بعضاً ، وعلى سبيل المثال نقول : إن أولى قصصه كتبها وهو يتلقى العلوم الطبية في الجامعة وعنوانها : « رسالة إلى جار عالم » ويجدها القارئ مترجمة في هذا الكتاب وهي قصة تهكمية نقدية ، يسخر فيها الكاتب من « غني أمي » يطيب له أن يتحرش بالعلماء و « يناظرهم » . . . وقد نشرت هذه القصة في مجلة « الذبابة الفارسية » سنة ١٨٨٠ ، ثم صار في تلك الأثناء يكتب في عدة مجلات نذكر منها « موسكو » و « المنبه » و « الشطايا » و « النور والظلام » و « الصرصور » و « صحيفة بطرسبورغ » . وكانت كتاباته في هذه المجالات أقاصيص هي أصغر من منقار الغراب ! وقد بلغت إحداها أحد عشر سطراً . . . وبالرغم من ذلك كان يقول له السيد ليتينسكي صاحب مجلة « المنبه » : أقاصيصك طويلة يا بني . . . اختصر . . .

وكان تشيخوف ينحو في قصصه هذه نحو الهزل والنكته ، وتحمل كتاباته أسماء مستعارة مختلفة منها « أنتوشا تشيخونته » . وإذ كان يشعر دائماً بأنه بحاجة ماسة إلى شخصيات ومواضيع هزلية ، أعلن في البيت ، وذلك بعد أن لحقت به أسرته من تاغزوغ ، أنه مستعد لشراء أية حكاية مضحكة بمبلغ عشرة كوبيكات ، أما إذا كان الموضوع يصلح لقصة

كاملة فيشترية بعشرين كوبيكاً . ويظهر أن أسعاره هذه أغرت أحد إخوته \* فكان يمدّه دائماً بالطرائف والملح ، ومن ثم أصبح « متعهده » الخاص .

ووضع تشيخوف في تلك السن - أي وهو في الرابعة والعشرين من عمره - ثلاث روايات هي « زهور متأخرة » و « الجديلة الذهبية » و « فوز لا لزوم له » لكنها لم ترق له فيما بعد ، ولم ينشرها في مجموعاته ، واندرت تماماً .

وفي سنة ١٨٨٥ وضع رسالة في التوجيه الأخلاقي لما قيمتها لصدورها عن شاب في الخامسة والعشرين ، وكانت هذه الرسالة دستور تشيخوف طيلة حياته ، وإلى القارئ ترجمتها الحرفية :

« إن المهذبين من الناس ليتحاون بانصفاً التالية :

أولاً - إنهم يحترمون الشخصية الإنسانية ، ولذا تراهم دائماً متواضعين ، مرنين ، متساهلين ، فإذا ما خالطوا أحداً من الناس فلا يقوون له " يتعذر العيش معكم " . . . إنهم يغتفرون للصخب والبرد ، والحرارة ، والتطرف ، ولوجود الغرباء في بيوتهم .

ثانياً - إنهم لا يتألمون للفقراء والحيوانات الضعيفة فحسب ، بل إن نفوسهم لتألم أيضاً لأشياء لا تراها العين . . . وهم لا ينامون الليل لأنهم في تفكير دائم فيمن يعجز عن دفع الأقساط المدرسية عن إخوته ، أو لا قدرة له على كسب أمه .

ثالثاً - إنهم لا يعشون بملك غيرهم ، وهم دائماً يسددون ما عليهم من ديون .

رابعاً - إنهم أتقياء القلوب ، ويخشون الكذب كما يخشى المرء النار .

فالكذب في نظرهم مهين للسامع ومحط من قيمة المتكلم . . . إنهم لا يتذبذبون في حياتهم ، فسواكهم في الشارع لا يختلف قط عن سلوكهم في البيت .

\* كان للكاتب أربعة إخوة وأخت .

وهم لا يحقرون إخوتهم الصغار ، كما أنهم غير ثرثارين ، فلا يتفوهون بما لا يسألون عنه وإذا ما تكلم غيرهم التزموا الصمت .

خامساً - إنهم لا يتمسكون بالاستثارة الشفقة عليهم ، وهم لا يضربون على أوتار قلوب غيرهم ليفوزوا بتأوهات من أجلهم . وهم لا ية ولون :  
”لا يفهمونى“ لأن هذه العبارة لا تدل إلا على ضالة ووقاحة وتزييف .

سادساً - إنهم لا يحماون المموم فى نفوسهم ، ولا تبهرهم الأحجار الكريمة الكاذبة ، كالسعى للتعرف إلى الأشخاص البارزين ، أو العمل على مصافحة أيدي السكيرين ! . . . وهم يهزأون بمن يتباهى بقوله : ”إننى مثل الصحافة“ ، ويكدون من أجل قوتهم فقط ، فلا يقننون ياقة بمائة روبل ، ولا يهتزون إعجاباً إذا ما سمح لهم بارتياح أماكن محظورة على غيرهم ، فالنباهة الحقيقية فى نظرهم هى العمل فى الظلمة ، بعيداً عن الضجة والإعلان . . . أولم يقل كريلوف : ”إن البرميل الفارغ يحدث ضجيجاً أكثر من البرميل المملآن . . . ؟“

سابعاً - إنهم يقدرون ذكاءهم ، فيضحون من أجله بالراحة والحر والنساء . وهم جد فخورين بعقولهم ، ويدركون أنهم مدعوون للتأثير على غيرهم بتعاليمهم . يضاف إلى ذلك أنهم صعب المراس .

ثامناً - إنهم لا يتصنعون تهذيب نفوسهم ، لأن نفوسهم مهذبة بطبيعتها ، وهم لا يهجعون بلباسهم ، ولا يهملون شقوقاً فى الحائط مليئة بالحشرات ، ولا يستنشقون الهواء المسمم ، ولا يسرون على أرض نثر عليها البصاق . . . ولا يتغذون فى أوعية قذرة ، وهم يسعون بقدر المستطاع إلى تقييد غريزتهم الجنسية والتسامى بها ، فهم لا يريدون من النساء فراشاً ؛ إنهم أشبه بالفنانين يريدون من النساء نضارة وجمالاً وإنسانية وكفاءة ليصبحن أمهات . . . وهم لا يقبلون على احتساء الطودكا ، ولا يتشمون الحزائن مثل الحنازير ، ومبدوهم : ”العقل السليم فى الجسم السليم“ .

هؤلاء هم المهذبون . . !

فلكى تكون مهذباً ولا تهوى إلى أقل من المستوى الذى أنت فيه لا يكفيك أن تطالع كتاب "بكفيك" أو أن تردّد حواراً من "فاوست"، بل عليك أن تعمل على صقل نفسك باستمرار، وأن تطالع دائماً، وأن تدرس، وتشد عزيمتك. فكل ساعة تمر من حياتك لا تقدر بثمن». .  
 وفى هذه الآونة: أكب تشيخوف على وضع رواياته الصغيرة «بلا أبوة» و«ليس عبثاً صاحت الدجاجة» و«الرواية الكبيرة». ثم أنجز مأساته المسرحية: «على الطريق العام» وقد حظرت الرقابة الروسية وقتئذ طبعها لتحديثها عن طائفة من الحجاج والقساوسة وأبناء السبيل. .

وفى سنة ١٨٨٦ نشر أنتوشا تشيخونته أول مجموعة من قصصه تحت عنوان: «قصص براءة» تتناول النكته والمداعبة والنقد التهمى اللاذع، فجلبت له الشهرة فجأة. وفى سنة ١٨٨٧ أعقب تلك المجموعة بمجموعة أخرى ونشرها بعنوان: «الشفق» وموقعة باسمه الصريح الجدى «أنطون تشيخوف». . فتألاً نجمه على إثرها فى عالم الأدب الروسى، ونال الجائزة الأدبية للأكاديمية الروسية المعروفة بجائزة بوشكين.

هذه هى المرحلة الأولى من حياة الكاتب الروسى الكبير، وقد عرف فيها أنه كاتب «يعدّ كثيراً» ويبشر بخير أدبى وافر، فهو يضع أيضاً من القصص الصغيرة لتتنشر فى جميع المجلات. ولما سئل فيما بعد: «كم وضعت من القصص فى تلك الفترة؟» أجاب: «أظن أنها بلغت الألف!». . ثم شرع ينتقل من وضع الأفاضل التى تنطوى على النكته والملاححة، وحدة الذهن، إلى القصص الكبيرة ومحاولات فى الرواية. وكان القوم وقتئذ ينظرون إليه بوصفه شاباً فطناً، إلا أن أحداً منهم لم يدر بخلاعه أن هذا الشاب الفطن سيدخل فى عداد الكتاب الكلاسيكيين الروس.

بعث تشيخوف يوماً برسالة للكاتب الروسي الشيخ « غريغوريقتش » قال له فيها : « كنت أكتب القصص كما يكتب مخبرو الصحف أبناء الحرائق ، كنت أكتبها وأنا في غمرة من الدهول ، وكأني في حالة لاشعورية غير مهتم بالقارئ أو بنفسى ، وغير ساع لأن أضع في القصة أشكالا وأشخاصاً كانت عزيزة على ، والله وحده يعلم ما الذى كان يحدو بى لأن أحتفظ بها وأدخرها » .

وفى سنة ١٨٨٧ وضع تشيخوف مسرحيتين هزليتين من ذوات الفصل الواحد ، وهما « الدب » و « طلب زواج » - ويجد القارئ المسرحية الأولى مترجمة فى هذا الكتاب - وقد لاقتا لدى الجمهور الروسى نجاحاً كبيراً ، ثم أعقبهما سنة ١٨٨٨ بأولى مسرحياته الكبيرة « إيقانوف » فحالفها التوفيق وجلبت له الثناء والمال معاً .

وفى سنة ١٨٨٩ ، وضع روايته الكبيرة « القفر » ومسرحية هزلية مؤلفة من فصل واحد « مفجوع رغم أنفه » - يجدها القارئ مترجمة فى هذا الكتاب أيضاً - ثم أعقبهما بمسرحيته الكبيرة « جنى الغابة » ، طلبها منه مسرح « كيرش » فى بطرسبورغ ، ورجاه أن يسرع فى وضعها ، فكان تشيخوف يضع كل يوم فصلاً فيحمله الرسول إلى مدينة بطرس ويعرضه على الرقيب قبل أن يحف حبره ، ثم يحمله إلى الممثلين ليستعدوا عليه . والمعروف عن تشيخوف أنه كان يمقت « جنى الغابة » وقد أصر على عدم إعادة طبعها وتمثيلها ، ثم عدلها بعد سنوات وأدبجها فى مسرحية « العم قانيا » .

وفى هذه المرحلة الثانية من حياته الأدبية يعترف به القوم بأنه « من أنبه الكتاب » ؛ فتقل كتابته ، ويبدو عليه التحفظ ، ويتحدث الناس عن كل شىء يكتبه ، وتفتح له المجلات الكبرى صدورها ، لكنه يتهم « باللامبديّة » . . .

وحدث في تلك الأيام أن أثار جماعة من الأدباء الكلام عن تشيخوف في حضرة الشيخ غريغوريقتش ، فقارنوه بكاتب أقل نبوغاً منه ، لكنه يفوقه في « المبدأ » فتنمر الكاتب الشيخ وقال : « إن هذا الكاتب المبدئي ، لا يستحق أن يقبل أثر البرغوث الذي يلسع تشيخوف ! »

ويندمج الكاتب في هذه المرحلة بجميع الأوساط الأدبية والفنية في العاصمتين الروسييتين ، ويظهر في المجتمعات متواضعاً ، محباً للإصغاء والتأمل ، مقلاً من الكلام ، وتأخذ شهرته في الانتشار والذيع ، ويحس الكاتب في هذه المرحلة أيضاً بميل إلى الرحلات فيتجه صوب القرم والقوقاس والقولغا ، ثم يعقد النية على السفر إلى آسيا الوسطى وإيران ، غير أنه يتلقى نبأ وفاة أخيه ميخائيل وهو في باكو ، فيقفل راجعاً إلى موسكو .

ثم لم يلبث أن عمد إلى إعداد مشروع للسفر إلى جزيرة « سخالين » جزيرة المنفيين والمبعدين . ومما قاله في تلك الجزيرة : « ربما لا يهم أمر سخالين تلك الفئة من الناس التي ليس لها فيها الآلاف من الإخوان والبنين ، ولا تنفق عليهم الروبلات بالملايين . فسخالين هذه موطن آلام لا تطاق . . ولا يقوى على احتمالها الأحرار والمستبعدون . حقاً إنه ليؤسفني أنني غير عاطفي وإلا لنصحت الناس بأن يحجوا إلى سخالين جيلاً بعد جيل كما يحج المسلمون إلى مكة ، وأما البحارة والسجانون فعليهم أن يتطلعوا إلى سخالين كما يتطلع المحاربون إلى سواستوبول . »

وقام برحلته هذه سنة ١٨٩٠ ، وظل في الجزيرة مدة ثلاثة أشهر لم يترك فيها مكاناً إلا زاره ، وبعد عودته وضع سفرأً قماً يقع في أربعمئة صفحة ، وصف فيه الجزيرة وسكانها وصناعاتها وزراعتها ودوائرها ومنافياها ، حتى إن وزارة المعارف الروسية حينذاك أذنت بتدريس « فصوله الجغرافية » في مدارسها .

وما إن استقر تشيخوف في موسكو ثانية ، حتى بدأ يملّ ويتضجر ، ويقول لأصدقائه : « إيه أصدقائي . . ما هذا الملل المستولى عليّ . . إن كنت طبيباً فإنني بحاجة إلى مرضى ومستشفى ، وإن كنت أديباً فعليّ أن أعيش في وسط الناس ، لا في زقاق مالايا ديمروفكا . . إنني بحاجة ماسة إلى "قطعة" من الحياة السياسية والاجتماعية . . وأما هذه الحياة بين جدران أربعة ، حيث لا صحة ولا شهوة ، ولا أناس ولا وطن ! فهي ليست حياة وإنما هي الموت بعينه ! »

وسرعان ما أقبلت عليه « القطعة » المطلوبة من الحياة الاجتماعية والسياسية ، ملبية نداءه ، إذ حدث أن المجاعة ضربت أطنابها في روسيا سنة ١٨٩١ ، فهب الكاتب يجمع للجوع اللباس والقوت . وفي سنة ١٨٩٢ رحل إلى مواطن المجاعة في نيجيغورودسكى وأخذ يشرف بنفسه على عملية إغاثة الفلاحين المنكوبين .

وفي السنة نفسها عمد تشيخوف إلى إنشاء حياة جديدة له تكون حافلة بالنشاط والإنتاج ، فابتاع قطعة أرض مهجورة في قرية ميلبخوفا ، بالقرب من موسكو ، وأخذ يفلحها ، ويعبد طرقها ، ويحفر فيها الآبار ، ويقم عاينها المستشفيات ويغرس فيها الأشجار ، ويعتنى بها كما يعنى المرء بأطفاله .

وفي ميلبخوفا هذه وضع تشيخوف مسرحيته « النورس » - وهو طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يعمل في الجو ثم يزرع نفسه في الماء ، ولا يأكل غير السمك - ومثلت على مسرح ألكسندر يفسكى في بطرسبورغ سنة ١٨٩٦ ، لكنها باءت بالفشل الذريع لأن الممثلين في ذلك المسرح الحكومي اعتادوا التمثيل الفني بلا حياة ، فلم يفقهوا تشيخوف في روايته . . فكانت العبارات الشعرية في روايته تثير ضحك الجمهور . . وكانت أقوالها الانتقادية تؤخذ على علائها فيعلق عليها النظارة بالتنكيت والسخرية . .

ولما انتهى التمثيل أقبل المداهنون يهتفون الكاتب وهو واقف خلف الستائر فلم يقو على احتمال هذه الهزيمة ، وفر من المسرح ، وراح يسير على ضفة نهر نيثا على غير هدى ، وكان الطقس رطباً بارداً ، فأثر ذلك في رئتيه المريضتين ، وأسرع في تقصير أجله .

إن حكم نظارة المسرح أسرع من القراء وأشد قسوة ، فالرواية يطالعها الناس وتنقضي مدة من الزمن حتى يفطن أحدهم لانتقادها ، وأما المسرح فترتفع فيه أصوات آلاف النظارة فوراً وتصدر في المسرحية حكماً سريعاً لا رحمة فيه ، ثم تهب الصحف بعد ذلك وتدين تلك المسرحية مستندة إلى الحكم الذي أصدره جمهور النظارة في المسرح .

وقد تلقى تشيخوف على أثر فشل « النورس » رسالة من لينسكى ، وهو أحد كبار ممثلى المسرح الإمبراطورى الصغير ، قال له فيها : « أنت تعرف مقدار حبي لك ، وتقديرى لكائك ، ولذا أرى لزاماً على أن أكون صريحاً معك . . فهناك نصيحتى الخالصة : لا تكتب للمسرح ، فالمسرحيات ليست من اختصاصك » . . . .

إلا أن فشل « النورس » و « نصيحة » ، لينسكى وغيره لم تحدّ من نشاط تشيخوف المسرحى ، فتابع وضع المسرحيات ، وأخرج إلى الوجود « العم قانيا » سنة ١٨٩٦ ، و « الأخوات الثلاث » سنة ١٩٠٠ ، و « حديقة الكرز » سنة ١٩٠٣ ، وقد تبنى مسرح موسكو الفنى جميع هذه المسرحيات بما فيها « النورس » ومثلها أفضل تمثيل يطابق روح تشيخوف وطرز تفكيره المستمد من وخزات الحياة ودقائقها .

ولما احتفل بانقضاء عشر سنوات على تأسيس مسرح موسكو الفنى وقف الممثل ستانيسلافسكى وقال عن « النورس » : « لقد جاءنا هذا النورس طائراً من بيت تشيخوف ، وجلب لنا معه السعادة وأنار لنا طريقاً جديدة في حياتنا الفنية » .

وقال الكاتب المسرحي الروسي الأشهر نيمروف دانشنكو في خطابه الموجه إلى تشيخوف إبان عرض « حديقة الكرز » سنة ١٩٠٤ : « إن مسرح موسكو الفنى مدين لذكائك ولقلبك الرقيق ، ولنفسك الطاهرة فيحق لك أن تقول : إن هذا المسرح مسرحى » .

وقال تشيخوف فى إحدى رسائله عن المسرح المذكور : « إن المسرح الفنى هو أروع صحيفة فى ذلك الكتاب الذى سيوضع يوماً ما عن المسرح الروسى المعاصر » .

وهكذا توطدت الصلات بين المسرح الفنى وتشيخوف حتى غدا الاثنان متلازمين ملازمة الروح للجسد . ولما عرض المسرح المذكور « العم قانيا » للمرة الأولى فى موسكو كان الكاتب فى القرم يعالج مرض ذات الرئة فقرر الممثلون السفر إليه ليقوموا بتمثيل روايته أمامه . . . وتوجهوا فعلاً إلى يالطا ، حيث كان يضطاف مكسم غوركى ، وعدد كبير من الكتاب وأسرهم ، ومثلوا « العم قانيا » بحضور أنطون تشيخوف وأقاموا فى حديقة بلدية يالطا حفلة تعارف كبرى بين الكتاب والفنانين .

فمسرقيات تشيخوف لم تنل فى بادئ الأمر النجاح من الجمهور لضعف فيها ، أو لعدم استعداد الجمهور لفهمها ، بل لأن الممثلين والمخرجين كانوا يتقيدون بقواعد بعيدة عن واقع الحياة ، فتعذر عليهم إخراج مسرحيات تشيخوف كما يريدونها ، ولم يتخط هذه العقبة إلا مسرح موسكو الفنى الذى أتينا على ذكره .

قال أحدهم : لكى تكتب المسرحية يجب أن تكون ذكياً ، ولكى تخرجها يجب أن تكون نابغة ! . . .

وشخصيات تشيخوف فى مسرحياته خلو من كل صباغ ، هم أناس بسطاء ، يتحدثون عن أبسط الأمور بلغة بسيطة . . . فليس فيهم نداء بكاء ، ولا من يتعلق بأهداب المثل العليا الخيالية ، وليس بينهم أبطال

يتباهون بجلائل الأعمال ، بل على النقيض من هذا كله فالمؤلف يعرى شخصياته ، ويكشف عن نواحيها السيئة ، ويشير إلى نزعاتها الأنانية ، فيحس قارئ مسرحياته والناظر إليها أن قلبه يميل إلى الحنان والتعطف على أناس غير واضحين ، وأن أحلاماً غير واضحة تدغدغه وتنبيهه إلى حياة أفضل ، وإن كانت غير واضحة ! . . .

وترافق هذه البساطة في التعبير ، موسيقى خلابة ، وكوخ مهجور وملكة قمراء ، وهدوء « سارة » المكبوت وأحزان « إيڤانوف » ، وكمان العزاف الرقيق . . . وكل ذلك طبيعي لا تصنع فيه ولا تكلف ، لأن تشيخوف لم يتبع أى تمييز في الألوان والألحان التي خلعتها على شخصياته ، وقد حصرهم في إخراج المسرحية بطبيعتها ، غير باحث عن أشكال جديدة ، وغير ساع لأن يكون مجدداً في المسرح الروسي ؛ وكل ما كان يسعى إليه هو إيجاد أدوار جديدة للممثلين مصوراً شخصياته كما يراها في الحياة متصلة بما يحيط بها من حقائق ووقائع . . . فتتضمن مسرحياته الحديث عن الفجر الوردى ، والأمسيات الساحرة ، والمصاييح ، والمواقد ، وغلايات الشاي ، والبيانوات ، والآلات الموسيقية ، والتبغ ، والأخوات ، والحالات ، والعمات ، والجيران والأغاني . . . وغير ذلك من مئات وآلاف الأشياء الصغيرة التي تبعث الدفء في الحياة .

فتشيخوف نظر إلى الناس بعينه لا بأعين تولستوى ، ودستوفسكى ، وتورغينيف . . . فلا أبطال لديه وإنما أمزجة مختلفة من الناس .

قيل له يوماً : أقرأت « الجريمة والعقاب » لدستوفسكى ؟ فأجاب : أراجأت قراءتها حتى أبلغ الأربعين ! . . . ولما بلغها سئل : أقرأتها ؟ . . . فأجاب : أجل قراءتها ولكنها لم تترك في نفسي أثراً كبيراً ! . . .

فتشيخوف صاحب اتجاه خاص في تأليفه ، فهو كما ألمعنا بصور أمزجة الناس ، وحالاتهم النفسية على مختلف أشكالها ، كما يصف

طباعهم وسلوكهم وعاداتهم ، ويتناول وخزات الحياة الدقيقة ، التي لا ينتبه لها المرء لكنها هي التي تولد بالتدرج حالات شتى من التعقيدات النفسية والفكرية . . . فالوخزة - أي أزمه متاعب الحياة - هي محور شخصيات تشيخوف ، وهي المقياس الذي يقيس به قيم الحياة الإنسانية .

وفي هذه المرحلة الثالثة من حياة الكاتب يُعترف بأنه من كبار الكتاب المسرحيين ، ويبدو في هذا الدور بأنه يعمل على تهذيب فنه العظيم ، ويفسح المجال لشخصياته لتفكر وتمحص ، ويتناول بصورة خاصة أشكالاً من حياة المتعلمين الروس ، التأهين في عالم المتناقضات ، الغارقين في الأحلام ، وانعدام الإرادة . . . وفي غمرة هذه التأملات يعثر المرء على أفكار للمؤلف حكيمة ، فاضلة ، أعرب عنها برشاقة وفن عظيمين ، كما أن أغنية « عدم المبدئية » اندثرت تماماً ، وغدا اسمه يأتي بعد اسم تولستوى مباشرة .

\* \* \*

إن كل من يطالع قصص تشيخوف ومسرحياته لا يسعه إلا أن يقر بعبقرية هذا الكاتب الفنان العالمي ، وإذا استقصينا السر في هذه العبقرية لا نجد في كفاياته الشخصية فحسب . بل في فهمه العميق لروح القصة والمسرح أيضاً .

حدثنا الكاتب الروسي تيليشوف - وهو أحد معاصري تشيخوف وأصدقائه - قال : تعرفت إلى تشيخوف في سهرة شتوية ؛ ولما قربت تلك السهرة من نهايتها قال لي : لقد لاح الصباح ، والمدعوون يتفرقون إلى منازلهم ، وحان لنا أن نخرج أيضاً ، فهل رافقتنا لشرب الشاي مع الزميل غيلياي وأخي ميخائيل بافلووفتش ؟ . . . فقبلت الدعوة وخرجنا أربعتنا في طلب الشاي ، وبعد بحث متواصل في الحارات والأزقة وجدنا مقهى أضيء مصباحه ، فدخلناه وكان قدراً حقيراً . . . فقال تشيخوف معلقاً : هذا ما نستحقه الآن ، وإذا وضعنا كتباً جيدة استحققتنا أن

نتناول الشاي في مقاه فاخرة ! . .

ولما كنا في ملابس السهرة الرسمية اعتبرنا أصحاب المقهى من خدم الموائد الأرستقراطية الذين أنهموا عملهم في حفلة عرس كبرى . . !  
فاغتبط تشيخوف لذلك وقال : هذا شيء نفيس . إنكم لتشكون من قلة  
المواضيع للكتابة . . أليس هذا بموضوع ؟ هنا مادة لقصة طويلة ! . .  
وكان حائظ المقهى قدراً ، وقد ظهرت عليه بقع سوداء ، تركتها  
رؤوس الحوذيين المخضبة بالزيوت ، فتطلع الكاتب إلى هذه البقع وقال :  
كيف لا توجد مواضيع للكتابة ، المواضيع موجودة في كل مكان . . .  
انظروا إلى هذا الحائظ : ها هوذا يبدو لكم لأول وهلة أن لا شيء فيه  
يسترعى الاهتمام ، ولكنكم إذا أنعمتم النظر فيه رأيتم شيئاً « خاصاً به » ،  
لم يعثر عليه أحد بعد ! فتحدثوا عن هذا الشيء . وأؤكد لكم أنكم  
تضعون حينئذ قصة جيدة . . . وأضرب لكم مثلاً بالقمر : لم يبق كاتب  
أو شاعر إلا تحدث عن القمر ، ومع ذلك بوسع المرء أن يجد في القمر  
شيئاً « خاصاً به » ويكتب عنه .

والتفت الكاتب فجأة إلى النافذة المطلة على الشارع ، وكان ضياء  
المنجر آخذاً في الانتشار وقال : انظروا ألا ترون قسماً يحمل كتابه  
بيمينه وهو في طريقه إلى برج الكنيسة؟ ألا تشعرون أن الموضوع الطريف  
يثير نفسه بنفسه؟ . . هناك شيء مفرح ، قس في السواد وفجر ممتع ! . .  
كان أنطون تشيخوف يقول للكاتب الناشئين : لا يجوز للكاتب أن  
يجلس بين أربعة جدران ، وأن يستولد المواضيع من ذاته ، بل عليه أن  
يرى الحياة والناس ويلمسهما ، وعليه أن يستمع إلى أحاديث القوم كما  
هي لا كما يتخيلها ، وأن يسعى دائماً إلى الأسفار والاحتكاك بمختلف  
العناصر والشعوب ؛ ونصح الكاتب مرة أحدهم بقوله : سافر إلى اليابان !  
ونصح غيره بقوله : سافر إلى أستراليا ! . .

وصادف الكاتب مرة صديقه تيليشوف راكباً قطار الضواحي فبادره قائلاً : لا تسافر إلى مصيفك الربيعي ، لأنك لن تجد هناك شيئاً يذكر ، سافر إلى مكان قصي . يبعد عن هذه المنطقة ألفاً أو ألفين أو ثلاثة آلاف فرسخ . . ارحل إلى آسيا ، وإلى البايكال في سيبيريا . . فالمياه هناك عذبة صافية . وإذا لم تجد متسعاً من الوقت فسافر إلى جبال الأورال حيث الطبيعة مائة خلافة . . . أجل تخط حدود بلادك إلى أوربا حتى إذا أرعدت شعرت بأنك تقف على تربة آسيوية ! . . وبعد ذلك ارجع إلى منزلك أو إلى مصيفك وأنت تحمل الشيء الكثير من المواد والمعلومات ، بل الكثير من القصص ! . . ففي الأسفار تشاهد كيف تعيش الشعوب ، وتكون مرغماً على أن تقضى الليل في الحانات أو الأكواخ ، فتتقلب على الفراش الحشن ، والبراغيث تلمسك وتقض مضجعتك . . وإذا ما أتممت ذلك كله فعد إلى واشكرني . . ونصيحتي إليك ألا تجلس في القطار الذي تسافر فيه إلا في عربات الدرجة الثالثة . . امتزج بالشعب الساذج ، وإن لم تفعل ذلك فلن يبلغ مسمييك شيء له أهميته . . فإذا أردت أن تكون كاتباً فما عليك إلا أن تبتاع تذكرة إلى منطقة نيجني ، ومن ثم أبحر في نهر الفولغا ، ثم في نهر كاما .

وعمل تيليشوف بنصيحة تشيخوف فأبحر سنة ١٨٩٤ في نهر الكاما الممتد وراء جبال الأورال ، وتعرف هناك إلى حياة المستعمرات الروسية التي يقطنها الفلاحون الروس ، ولمس بؤسهم الذي يشبه الخرافات والأساطير ، ولما عاد إلى موسكو كان يحمل في جعبته مجموعة رائعة من قصص سيبريا ، فتزاحمت عليها كبريات المجالات الروسية في ذلك الحين .

ويروى لنا تيليشوف قصة طريفة من حياة الكاتب فيقول : كنت يوماً أركب القطار في الدرجة الثالثة فاجتمعت فيه بفلاح مسافر إلى قرية لوباسنا ، مصيف تشيخوف ، وبحكم جوارى لذلك الفلاح تجاذبنا

أطراف الأحاديث ، فلما عرفت أنه من قرية لوباسنا قلت له : لى صديق فى قريرتكم أعرفه . .

قال : من هو ؟ . .

قلت : الدكتور تشيخوف . . .

قال : ها . . أنطون بافلوفيتش ؟ . . قال ذلك مبتسما مسرورا :

ولكن سرعان ما توجهم وجهه وأردف قائلا : حقا إنه لشخص غريب الأطوار ، مشوش الأفكار !

قلت : من ؟

قال : الدكتور أنطون بافلوفيتش . . نقلت له زوجتى العجوز

وعالجها وشفأها . . ثم مرضت بدورى وعالجنى وشفأنى . . ولما قدمت

له أجرا رفض قبوله رفضا باتا . فقلت له : أى عزيزى أنطون بافلوفيتش

كيف ترفض الأجر ، ومن أين ستعيش إن لم تتقاضى منى ومن غيرى

أجرا . . . أنت لست بالرجل الغنى ! هلا فكرت فى مستقبلك قليلا . .

تصور أنك فى ساعة من ساعات القدر العاتية ستضطر إلى ترك عملك ،

فما أنت فاعل ؟ أنتشغل بالتجارة وأنت تجهلها ! . . وإلى أين تذهب

ويداك نحاليتان من المال ؟ . . فضحك أنطون بافلوفيتش وقال : إذا

أخرجت من عملى أتزوج من امرأة تاجرة ! . . قلت : وأية تاجرة تقبلك

بعلا لها وأنت لا مركز لك له أهميته . . وكان جوابه أن ضحك ثانية

كان الحديث لا يعنيه ألبتة .

كان جليسى يحدثنى بذلك وهو يابوى رأسه ويتمهد ، ثم أردف قائلا :

أجل ! إنه لرجل طيب أنطون بافلوفيتش . . غير أنه سيعانى مصاعب

جدة فى كبره . . إنه لا يدرك قسوة الحياة عندما تكون بلا حساب !

أما هذه الحياة التى « بلا حساب » فى حياة تشيخوف فتظهر بكل

وضوح وجلاء فى الحادث التالى :

اتفق الكاتب سنة ١٨٩٧ مع الناشر الألماني ماركس ، صاحب دار « نيتشا » للنشر ، على أن يضع تحت تصرفه كل مؤلفاته التي كتبها والتي سيكتبها في حياته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل ونصت الاتفاقية على أنه لا يحق للكاتب أن يسمح لأحد بنقل شيء من مؤلفاته حتى ولو كان المقصد من ذلك عمل الخير . أو مساعدة أية هيئة من هيئات الإحسان ! . . .

وبعد أن وقع الطرفان هذه الاتفاقية شرعت دار النشر « نيتشا » في طبع مؤلفات تشيخوف في اثني عشر مجلداً ، وعرضتها على الجمهور . فأدرت عليها بعد مرور سنة من الزمن أرباحاً طائلة عوضت عليها أضعاف ما دفعته للكاتب .

وما إن انتشر خبر هذه الاتفاقية حتى أحدث ضجة كبرى في الأوساط الأدبية الروسية . وأسرع ماكسيم غوركي في كتابة رسالة لأنطون تشيخوف ينصحه فيها بأن يفسخ اتفاقته مع ماركس . وقال له فيها :

« ابعثوا بهذا اللص إلى الشيطان . . . إنني أتقدم إليكم بالنيابة عن نفسي ، وبالأصالة عن دار « المعارف » أن تفسخوا اتفاقيتكم مع ماركس ، أعيدوا إليه الخمسة وسبعين ألف روبل مع الفائدة ونحن نتعهد لكم أن نساعدكم في ذلك . إننا نضع تحت تصرفكم كل ما تحتاجون إليه من مال . . . ثم نحولونا حق نشر مؤلفاتكم . أي ادخلوا شريكاً في دار « المعارف » وتولوا بنفسكم نشر كتبكم . . . إننا نعدكم بتسليمكم كل الربح الذي نجنيه من نتاجكم الفكري . وتظلون المالك الشرعي لذلك النتاج طيلة حياتكم . واتفاقكم معنا يمكنكم من طبع كميات كبيرة من كتبكم . وبيعها بأسعار زهيدة تنافس أسعار ماركس . . . إن الناس اليوم يقرءونكم في القرى ، كما يقرءونكم فقراء المدن ، وهؤلاء يتعذر عليهم

دفع روبل وخمسة وسبعين كوبيكاً ثمناً للكتاب الواحد . أى عزيزى  
ابعثوا بهذا الألمانى إلى الشياطين . فوالله إنه لينهينكم بكل قحّة . افسحوا  
اتفاقيتكم معه ، ودار "المعارف" تضمن لكم دخلاً سنوياً معلوماً قدره  
خمسة وعشرون ألف روبل . فكروا فى ذلك ! . . . »

ولما كانت البلاد الروسية تتأهب فى ذلك الحين للاحتفال بمرور  
خمسة وعشرين سنة على حياة تشيخوف الأدبية . اجتمع فريق من  
الأدباء والشعراء والعلماء ، والفنانين ، واتخذوا قراراً بالاحتجاج على  
اتفاقية ماركس وبعثوا له بالرسالة التالية :

« فى هذه الآونة التى تستعد فيها روسيا بأسرها للاحتفال بمرور ربع  
قرن على حياة أنطون تشيخوف الأدبية ، تبرز أمامنا قضية خطيرة تهتم  
المجتمع الروسى قاطبة . ومفاد هذه القضية أن هناك عدم تناسب مريع  
بين ما قدمه ويقدمه أنطون بافلوفيتش من خدمات أدبية جلييلة من جهة ،  
وعدم ضمان حالته المادية من جهة أخرى .

عمل أنطون بافلوفيتش ربع قرن فى إيقاظ ضمائر الناس وإنارة أفكارهم  
بما قدمه لهم من تأليف نفيسة خطها بمداد قلبه المحب الحى . وله الآن  
ملء الحق فى أن يجنى ثمار مجهوده الفكرى وإلا فالعار العار ! . . .

إن المؤلفين والكتاب فى البلاد الغربية يصيبون القدر الكبير من الثروة  
والاستقلال مما يقدمونه لأقوامهم من تأليف . وأما تشيخوف روسيا فهو  
لاتنقصه الثروة فحسب — إذ لا يعقل أن يحلم الكاتب الروسى بالإثراء —  
بل إنه لا يملك أيضاً القدر المتوسط من المال الذى يمكنه من الكون إلى  
الراحة فى كبره دون أن يفكر فى قوت غده .

أجل . هذا هو المصير الذى ينتظر رجلاً تتجه إليه اليوم أنظار  
الروس ، وهى تشع بوميض الفرح والابتهاج لمناسبة مرور خمس وعشرين  
سنة على حياته الأدبية الطافحة بروائع الإنتاج ، التى وضعت فى مصاف

الكتاب العالميين .

فمنذ أشهر فقط عمد بلد صغير مثل بولونيا إلى إظهار عواطفه الإنسانية السامية نحو شاعره القومي سينكيشتس . فأكرمه بسخاء في يوبيله الأدبي الفضي . وأما تشيخوف روسيا العظمى فيقابله الدهر الخزون بحرمانه أبسط حق من حقوقه المعاشية . . . .

لقد اطلعنا على الاتفاقية المعقودة فيما بينكم وبين أنطون بافلوفيتش تشيخوف والتي يحق لكم بمقتضاها أن تضعوا يديكم على جميع مؤلفاته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل . والتي تخولكم الحق أيضاً في أن تدعوا ملكية كل ما ينتجه في المستقبل مقابل أجر زهيد لا يزيد على المكافآت العادية التي يدفعها أصحاب المجالات للأدباء والكتاب . والفارق بينكم وبين تلك المجالات أن هذه تكتفي بنشر المقال مرة واحدة وأما أنتم فتنشرون تأليف تشيخوف مراراً عديدة . وإننا لعل علم تام بأنكم قد تمكنتم ، بعد مرور سنة على عقد تلك الاتفاقية ، من تعويض ما دفعتموه لتشيخوف أربعة أضعاف ! . . . .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه الأرباح الطائلة التي جنيتموها ، والتي تستجنونها في المستقبل ، من بيع تأليف تشيخوف ؛ نصل حتماً إلى نتيجة محزنة أليمة لا ريب فيها ، وهي أن الكاتب الكبير لم يصب إلا جزءاً ضئيلاً جداً مما يستحقه .

ولاتفاقيتكم هذه شرط سلبي آخر وهو إرغام أنطون تشيخوف على أن يقدم لكم كل تأليفه الجديدة بمقابل ثمن بخس . فهذا الشرط الجائر لا بد أن يكون حملاً ثقيلاً على نفس الكاتب . وسيترك أثراً سيئاً في سير إنتاجه الأدبي .

وفي الاتفاقية نص آخر يفرض على الكاتب غرامة قدرها خمسة آلاف روبل على كل ملزمة مطبوعة في أية دار نشر غير دار "ماركس"

وهذا يعنى أيضاً حرمان الكاتب من إصدار طبعات شعبية زهيدة الثمن ، فتكون جميع الكتب الحديثة - الصادرة في طبعات شعبية - فى متناول الجميع حاملة أسماء كل الكتاب ، غير اسم عزيز علينا ، هو اسم أنطون بافلوفيتش تشيخوف . . . .

إننا نرجوكم فى هذا اليوبيل الفضى الأدبى المقام للكاتب الكبير أن تعدلوا ذلك الجور غير المختار الكامن فى طيات اتفافتكم . وإننا لنفترض بأنكم وأنطون بافلوفيتش لم تتمكنوا فى أثناء عقد الصفقة فيما بينكم من لمس ما ستسفر عنه تلك الصفقة من نتائج ، ولذا نتوجه إلى ضميركم وعدلكم أن تفسخوا الاتفاقية ، ونعتقد جازمين أن الاعتبارات الشكلية فى مثل هذه الأحوال يجب ألا تلعب دوراً هاماً على الإطلاق .

ونلفت أنظاركم إلى أن اتفافت مماثلة فسخت فى الماضى ، ونضرب لكم مثلاً بالاتفاقية المعقودة بين إميل زولا ودار "فيسكل" للنشر ، فقد عقدت هذه الاتفاقية بين الفريقين فى وقت لم يكن فيه زولا كاتباً كبيراً ، له قرائه . . . . ولما شغل زولا المكان اللائق به فى الأدب الفرنسى ، عمدت دار "فيسكل" إلى فسخ الاتفاقية وتحرير اتفاقية ثانية تضمن للكاتب الفرنسى الحرية والضمان . . .

ووقع هذه الرسالة عدد من الكتاب ، والعلماء ، والضمانيين . بينهم مكسيم غوركى وليونيد أندرييف ، وفيودور شاليابين ، وإيفان بونين ، ونيقولاي تيليشوف وغيرهم .

ولما بلغ تشيخوف خبر هذه الرسالة سأل القائمى بها أن يكفوا عن جمع التواقيع ، وألا يبعثوا بها إلى «ماركس» قائلًا : لقد وقعت تلك الاتفاقية مختاراً ، ولا يليق بى أن أتخلى عن الالتزامات التى قطعها على نفسى ، فإذا رخصتُ فأنا المالم ! لقد ارتكبت حماقة ، والسيد «ماركس» غير مسئول عن حماقات غيره . . . فى مرة أخرى سأكون حذراً ! . . .

وفي هذه الآونة . . . أى حوالى سنة ١٨٩٥ ، تعرف تشيخوف إلى إيڤ تولستوى ، وتطور هذا التعارف إلى صداقة ، ثم إلى حب واحترام ، فى حين أن الشخصين كانا على طرفى نقيض فى طريقتيهما ، ونمط تفكيرهما ولا يتقابلان فى نقطة واحدة ؛ فالأول واقعى إلى أبعد حدود الواقعية والثانى صوفى مغال فى صوفيته . وبالرغم من ذلك كان تولستوى من جهته يجل تشيخوف أيضاً كفنان عظيم ، وإنسان سام ، وشخصية فذة ، ويغفر له عبادته للعلم والثقافة ، ويسر جداً لتأليفه ، ويعجب بها ، وهكذا توطدت عرى الصداقة بين الأرسقراطى العظيم المتحدر من أسرتى فولكونسكى وتولستوى ، والرجل الشعبى الصاعد من الفلاحين الأرقاء ! . . .

قال تولستوى مرة : تشيخوف هو بوشكين روسيا فى النثر !

وقال أيضاً : تشيخوف شخص فائن ، متواضع ، لطيف المعشر ، ويسرنى أن أتحدث عنه . . .

وكان تشيخوف يقدر تولستوى العبقرى حق قدره ، ويدرك كنه قيمته الأدبية ، ويتبين لنا ذلك من المثل التالى :

أصيب تولستوى سنة ١٩٠٠ بمرض عرضى حياته للخطر ، وكان تشيخوف طبيببه الخاص فأخذ يعالجه ويعوده يومياً ، وإذ خرج من عنده مرة قال لأصدقائه : « إننى أخشى موت تولستوى ، ففقدانه سيحدث فراغاً عظيماً فى حياتى ، لأننى أولاً لا أحب أحداً أكثر منه ، وثانياً لأن وجوده فى معترك الحياة الأدبية يسهل على المرء أن يكون أديباً ، وأن يتذوق الأدب حتى ولو أنه لم يفعل ولن يفعل للأدب شيئاً ! . . . فتولستوى يعمل للجميع ! . . . وثالثاً لأن فى بقائه على قيد الحياة بناء قوة معنوية تكبح جماح الأذواق القبيحة ! . . . ورابعاً لأن فى بقائه ما يحفظ الأحاسيس الأدبية واتجاهاتها على أن تظل فى مستوى عال معلوم » . ومن غريب تصرفات الدهر أن الشيخ تولستوى شفى من مرضه ، وبعد سنوات قلائل ،

كان في جملة من شيع تشيخوف إلى لحدته ! . . .  
 ففي سنة ١٨٩٧ اكتشف الكاتب فجأة أنه مصاب بالتدرن الرئوى ؛  
 فسافر إلى بيارتس في فرنسا للاستشفاء ، ثم انتقل إلى نيس . وفي سنة  
 ١٨٩٨ عاد إلى روسيا فباع أملاكه في قرية ميليخوفة ، وتوجه توجاً إلى  
 يالتا في القرم برفقة شقيقته ماريا بافلوفنا ، فابتاع هناك أرضاً في قرية  
 آوتكه ، وشيد عليها بيتاً صغيراً حسب ذوقه ، وأحاطه بحديقة غناء ،  
 زرع فيها أشجاراً توحى له جو المناطق الروسية الشمالية التي كان يتعشقها ،  
 ومع ذلك كان ينظر إلى القرم وكأنه منفى لا مكان للاستشفاء والتمتع  
 بحمال المناطق الطبيعية الجنوبية ، مخالفاً في ذوقه هذا معظم شعراء الروس  
 وكتابهم ، الذين كانوا يتمنون العيش عند سواحل القرم أو على جبال القوقاس .  
 ونرى الكاتب في القرم كما عهدناه في قرية ميليخوفة ، منشئاً ،  
 اجتماعياً ، يعنى بمعالجة المرضى والضعفاء ، كما أن مرضه لم يفقده حبه  
 للنكتة ، وخفة الروح ، والتحدث عن صغائر الأمور ، والمداعبات المستحبة .  
 وحدث في خريف سنة ١٩٠٢ أن زاره في بيته \* في القرم جماعة  
 من الأدباء والكتاب بينهم غوركى ، وبونين ، وبعد أن تناولوا العشاء  
 تطوع بونين بأن يقرأ على الحضور قصة مرحة لتشيخوف ، وكان المؤلف  
 قد نسيها لقدمها . . . فأنصت الجميع لبونين ، وقد سحرهم بحسن إلقاءه ،  
 وإحكام لفظه ، أما تشيخوف فقد عبس في أول الأمر ، ثم ابتسم ثم  
 أخذه الضحك . ولما انتهى بونين من القراءة علق الكاتب المريض بقوله :

\* فيلا تشيخوف هذه لا تزال قائمة بالقرب من يالتا في القرم ، وهي اليوم  
 متحف لآثار الكاتب الكبير ، وكل شيء في هذه الفيلا بباق مكانه كما تركه ،  
 فهناك غرفة نوم ، ومكتبته ، وملابسه ، ومجموعة آخر رسائله . . . فيخيل للزائر  
 أن صاحبها آت بعد لحظات ! . . .

أنتم محظوظون يا كتاب اليوم ، فالناس يخلعون عليكم آيات الثناء على ماتقامونه لهم من قصص قصيرة . . أما أنا فقد مر بي زمن كان الناس فيه يهابون على بالشتائم لأنني أكتب القصة ! . . لأنهم كانوا يعتقدون أن الكاتب لا يكون موضع الاحترام والاعتراف بالجميل إلا إذا وضع رواية كبيرة ! . . غير أنني بينت عمق هذه الفكرة ، وخرقت الحائط بجيبي من أجل القصص القصيرة .

وفي ٢٥ مارس سنة ١٩٠٢ تزوج الكاتب من إحدى ممثلات مسرح موسكو الفنى ، وهى أولغا ليونارودوفنه كنير ، وكان زواجاً دام سنتين فقط .  
وفي سنة ١٩٠٢ أيضاً انتخب تشيخوف ، وغوركى ، وكورولينكو \* أعضاء فى الأكاديمية الروسية ، لكن القيصر نيقولا الثانى أبى على غوركى عضوية الأكاديمية وحرمه منها قائلاً : « إننى جد متألم من انتخاب غوركى » ، فما كان من تشيخوف إلا أن رفض عضوية الأكاديمية احتجاجاً على تصرف القيصر المشين ، ومناصرة ازميله الكاتب الشعبى الكبير .

وفي سنة ١٩٠٣ وضع الكاتب تمثيلية « حديقة الكرز » فقرر مسرح موسكو الفنى أن يمثلها فى ١٧ يناير سنة ١٩٠٤ ، أى فى ذكرى ميلاد تشيخوف ، وفعلاً مثلت فى حضوره ، وبعد الانتهاء من التمثيل وقف صاحب التمثيلية أعلى المسرح والجمهور الغفير يقدم له الزهور ، والهدايا ، والبطاقات ، وكان الكاتب - وقد اشتد عليه المرض - يبدو شاحباً هزيباً ، متصوراً أن الجمهور يجرى تجربة كبرى لتشجيع جثمانه ! . .  
وفي شهر يونيو سنة ١٩٠٤ ألح الأطباء على تشيخوف بأن يسافر

\* دلاديمير غالاكتينوفتش كورولينكو (١٨٥٢ - ١٩٢١) كاتب

روسى كبير ، ومن مؤلفاته البارزة « الموسيقى فى الضريح » .

إلى بادن فيلير في ألمانيا للاستشفاء ، وقبيل مغادرته القرم زاره أصدقاؤه  
فأروه هيكلًا ضئيلاً : شمعي اللون ، وعيناه « لا تبسمان » كما كانتا  
في السابق . . فقال لهم : الوداع إنني ذاهب لأموت . . تحياتي إلى جميع  
الأصدقاء والمعارف ، وقولوا لبونين أن يواظب على الكتابة ، لأنه سيصبح  
كاتباً له شأنه .

وانتقل الكاتب إلى بادن ليقتضى آخر أيامه فيها ، وفي ١٥ يوليو  
سنة ١٩٠٤ ، وبعد أن استنفدت جميع وسائل الطب ، أشار الطبيب  
بتقديم كأس من الشمبانيا ، ولما كان تشيخوف طبيباً لم يفته المعنى من  
تقديم الكأس المذكورة ، فنهض في فراشه وقال للطبيب بالألمانية : إنني  
أموت ! . . ثم رفع الكأس بيده وقال لزوجته مبتسماً : لقد مضى على  
زمن طويل لم أذق خلاله طعم الشمبانيا : وأفرغ الكأس في جوفه حتى  
الثمالة ، واضطجع بهدوء على جنبه الأيسر ، وسكت سكتته الأبدية .

وعند مطلع فجر اليوم التالي نقل جثمان الكاتب إلى الحدود الروسية  
فتلقاه أناس من الموظفين لم يسمعوا باسمه قط ! . . فوضعوا نعشه في عربة  
كتب عليها « عربة الأسماك والمحارات » ثم وصل الجثمان إلى بطرسبورغ  
ولم يدر به أحد بسبب سوء تفاهم وقع في إرسال بوقية النعى . وفي السابع  
عشر من يوليو سنة ١٩٠٤ نقل الجثمان إلى موسكو ، وكان في استقباله  
جمهور غفير من النواب ورجال الفنون والأدب والعلم يحملون مئات  
الأكاليل وباقات الزهور ، وكان ذلك الاستقبال بمثابة كلمة شعبية  
كبرى في تقدير فداحة الخسارة .

ومن ثمَّ شيع أنطون باقاوفيتش تشيخوف إلى « دير العذارى » المعروف  
بدير نوفوديفيتشي بالقرب من موسكو ودفن فيه .

وفي ١٦ يناير سنة ١٩٣٣ أي بعد تسع وعشرين سنة على وفاة الكاتب  
الروسي العظيم ، نبش القبر بحضور رهط من الناس يمثلون مسرح موسكو

الغنى و . الجمعية التشيخوفية ، : وذوى الكتب وأخرجوا النعش المطوق  
بالزئبق ، ونقلوه إلى مقبرة جديدة في موسكو أعدتها الحكومة السوفياتية  
لنوابغ الكتاب والفنانيين الروس ، ودفن في ضريح فخيم يليق بمقامه الأدبي ،  
وكان موقع الضريح في « حديقة الكرز » تذكاراً لآخر تمثيلية وضعها  
الكاتب في أواخر أيامه .

» « «

كلمات مأثورة لتشيخوف :

« آن الأوان ! إن أحداثاً هائلة تقرب منا، إن عاصفة قوية عنيفة  
تسير نحونا قدماً ، إنها تقرب شيئاً فشيئاً ، وستنسف من مجتمعنا السامة  
والكسل وعدم المبالاة والنفور من العمل » .

من مسرحية « الأخوات الثلاث »

« من الأقوال الدارجة أن الإنسان بحاجة إلى ثلاث أذرع من  
الأرض ، والواقع أن هذه الأذرع الثلاث تلزم لحنة الإنسان فقط ،  
وأما الإنسان الحي ، فلا تسعه ثلاث أذرع من الأرض ، ولا بيت كامل ؛  
وإنما الطبيعة قاطبة ، بل الكرة الأرضية بأسرها ، ليتمكن في فسحتها  
من إظهار جواهر روحه وخصائصها » .

من قصة « عنب الثعلب »

« مهمة الإنسان إما في لا شيء ، وإما في شيء واحد : الحب

المتناهي للقريب » .

و « هناك طراز من الناس يتعمدون الجزء بغيرهم في كل مظهر من  
مظاهر الحياة ، وهم لا يستطيعون العبور بجائع أو منتحر دون أن يقولوا  
له قولاً لئياً » .

من قصة « الرجل المجهول »

« يقولون إن الفلاسفة والحكماء "لامبالون" ، وهذا قول غير حقيقى فاللامبالاة هى شلل النفس ، هى الموت قبل الأوان » .

من قصة « السيرة المملة »

« الزواج بلا حب كالعبادة بلا إيمان ، وهذا ضرب من النذالة لا يليق بكرامة الإنسان » .

من قصة « المبارزة »

« حياة البطالة والفراغ مشوبة بالقذارة » .

من مسرحية « العم فانيا »

— « ماذا تكون حالنا لو أن الحياة الإنسانية كانت مبنية على عدم مقاومة الشرور ؟ !

— لا شيء بتاتاً . . فعلم مقاومة الشرور يفسح المجال لعبث الإرادة الآتمة ، وهذه — والمدنية معها — لا تبقيان على الأرض حجراً على حجر !

— ومن يتبقى على الأرض إذن ! . .

— جماعات من الأشقياء ! . .

من قصة « أناس طيبون »